الفصل الثاني

بين الكتب والأغنام

من نافذة المدرسة الأيوبية كنت أراه..!

كان الراوي يحدثني كل مساء عن فتح الله.. كنتُ نزيلَ المدرسة الأيوبية آنئذ، وكان المستشفى يطل على بحر "مَرْمَرَةَ"، هو بحر يعكس أنوار الأسماء الحسنى ليل نهار.. أما الليل ففيه من عجائب التجليات ما يبهر أولي الأبصار، وأما النهار فسبحات وأذكار.. وكنتُ أبيتُ أتلقَّى مشاهَداتٍ عن بطل النور، وارث أسرار الحكمة.

ما بين عشية وعشية، كنتُ أنخرط مِنْ عَلَى سرير العِلَّةِ في صحبة عُوَّادِي.. كانوا من بعض رواد النور وحُمَّالِ ناره. فكنت أشرب من جمال الأدب الغالي متعةَ رُوحٍ ولذةَ شفاءٍ.

وكل صباحٍ، كنتُ أسير الهوينى مقتفيا أثر فتح الله، كانت ظلاله تمتد على كل بلاد النور، وكنتُ أتقصى ما في مسافتها الممتدة من خطوات، أحصيها واحدة واحدة.. حتى كدت أسمع أصداء بكائه الليلي تحت بعض قباب إسطنبول! شعرت بقرب الوصول.. وبدأ قلبي يهز في صدري بقوة! فقد كان طمعي أني أكتشف سر بكائه، وأعثر على مفتاح فؤاده، وأرى كيف يقدح نار توهجه وسهاده.. أو أني أجد على النار هُدى!

لكني واأسفاه كنتُ قد استنفدتُ القَدْرَ المأذون لي به في بلاد النور! فاضطررت إلى العودة بجراب خَاوٍ، لا أحمل إلا أثقال الآلام إلى مكناسة الزيتون في وطني، على أمل العودة لاستئناف دروس الحكمة في مدرسة النور! لكن القدَر أخرني عنها نحو عام أو يزيد قليلاً!

عندما غادرت مطار إسطنبول أحسست بأني أحمل في كبدي كل أوجاع الدنيا، وأني لم أفلح بعد في العثور على سر دوائي! فوضعتُ رأسي بين يدي، وانكفأتُ على مؤخِّرة الكرسي أمامي، وأغمضت عيني في استرخاء ناعس، وجعلتُ أنظر من خلف مُقْلَتَيَّ إلى شاطئ الآخرة قريباً، وتجلت لي أعمالي وهول حالي فبكيت!

* * *

في وطني المكروب، خرجتُ حبوا نحو مسجدي، فشاهدت منبري القديم، وهزتني الأشواق إلى الأيام الخوالي، فلم أطق يا سادتي حبس جماح الحنين إلى أعواده، فألقيت بنفسي في أحضانه العالية! وجعلت أشرب من عيون مصحف صغير منشور بين يدي، وأرش سنابلَ القمح الخضراء أمامي.. كانت غصونها الرطبة تنبت من تحت حصير المسجد، وتزدحم وريقاتها الجميلة بين السواري والأقواس، حتى تملأ المكان خضرةً، ثم تشرئب برؤوسها الملأى نحو القبلة.. ولكن واأسفاه!.. لم تمض سوى أيام حتى تحطم المنبر من تحتي، فوقعت على الأرض صريعا! وعلمت بأني واعظ غير مأذون فرجعت إلى فراش العلة كسيرًا!

ثم لم تكد السنة تسلخ من عمري أيامها، حتى هبت رياح السفر مرة أخرى، فجمعت أوجاعي ورحلت..

....

كل طائرات العالم تسافر في المكان، إلا طائرة إسطنبول؛ فهي وحدها ترحل في الزمان! كلما نزلتُ في مطار دار الخلافة، وجدتني أعيش في زمن آخر تماما! ولم يفلح ضجيج العصر الآلي، ولا تقدمه الصناعي، في حجب الحقيقة عني! كنتُ أتجول بسهولة ما بين خيول الفاتحين.. كنت أشاهد

جيوش الصحابة والتابعين تتدفق أمواجها على سور القسطنطينية القديم؛ فتتعالى في الفضاء تكبيراتها بالبُشْرَى والنور! كنت أقترب جدا من عَرِيشِ السلطان مراد الثاني، فأصغي إلى تهجده وأذكاره، وأسمع حمحمة خيول ابنه محمد الفاتح. ولقد اقتربت منه حتى تجلى لي وجهه كاملاً مثل البدر الجميل.. كان شابا في التاسعة عشر من عمره، تماماً على سن الصحابي أسامة بن زيد ﷺ، لما جعله النبي ﷺ أميراً على جيش أصحابه في غزو الروم! ورأيت محمداً الفاتح مرة أخرى في مدينة "أَدِرْنَه" يرص صفوف جيشه العظيم لفتح القسطنطينية.. كان قريباً مني قريباً.. ووددت لو أني سلمت عليه وقبلت يديه، ولكن ما منعني من ذلك إلا أني لم أكن مأذوناً!

وإني لأتجول ما بين زمن السلاجقة في بلاد الأناضول إلى زمن العثمانيين، وخلافة الإسلام العظمى، وأنا أشاهد أمواج التاريخ تتدفق حية بين يدي، وأتبع حركة الفتوح ما بين أضلاع أوروبا إلى أقصى تُخُوم الصين! وكم كنت أتجهز الليالي بوقود الصبر لدخول زمن الذئب الأغبر! كنت أشاهد تلاشي آخر ملوك بني عثمان، وسقوطهم في شباك يهود! وأسمع صيحات الألم الصاعدة من أعماق تلال إسطنبول، وشلالات تركيا، وأنين فلسطين! كنت أتتبع خاتم الحكمة التركية وهو يتقلب بين أصابع الوارثين أنَّى مرساه! ولقد رأيته بعد سقوط مئذنة السلطان في يد بديع الزمان النورسي! حتى إذا رحل شاهدتُ فتح الله يدسه في محفظته القديمة!

ثم ما أزال أتدرج عبر الأزمنة مقاماً بعد مقام، حتى أصل إلى باب المستشفى، وهناك أدرك أني قد دخلت زماني، فأتسلق أغصان دالية الحزن وأدخل عش شجوني!

* * *

عندما كنت أتلقى دروس الحكمة بين يدي راوي الأشجان، كانت عيناه تبحران في برزخ غروب هارب، فلا يزال يحكي حتى تخرج أشباح مرمرة من مخابئها، وتبيت تسرح في ظلمة شاملة، تثقبها بالنور مصابيح الزوارق الصغيرة، المبحرة هنا وهناك، وأنوار الجزر الناعسة فوق الماء..

قال لي:

صحبة الأغنام في مسارح الخلوات يا صاح، هي أول مدارج الأنبياء إلى مقام الوصل العالي، وهي طريق الأبدال إلى تلقي الأحوال. لا مسلك لعاشق النور سواها! فاحمل عصاك على كتفك، وارحل إلى وادي الروح فَرْداً! فكل عقبات النفس سيناءٌ، وكل أشواقها طُورٌ ونورٌ! لكنك لن تدرك بوارق البشرى يا صاح إلا بعد مسير دام على أشواك الليل ترعى أكباد غنم لم تزل ترغو بين الوديان، في طريقها إلى موعدها الموعود.. حتى إذا نطقت البُهُمُ بما يُفهم فَاعْلَمْ أنك قد أدركتَ مقامك! وهناك يا صاح هناك، اِخْلَعْ نَعْلَيْكَ وَأَلْقِ عصاك... واشْهَدْ في أفق الظلمة أنوارَ الوصل، سُرُجاً من عناقيد الحب تتدلى... فاقطف منها ما أنت تشاء! فإنَّ لكَ بكل خفقة قلبٍ نورًا ونارًا! أما النور فذاك غذاؤك عند رجوعك إلى مدائنهم، وأما النار...

قالها ثم سكت مَلِيّاً، انتظرتُ تتمة حكمته، لكن لم ينْبس ببنت شفة!

قلتُ وقد نفد صبري: بأبي أنت وأمي يا رَاوِيَةَ الروحِ.. ما شأن النار؟

لكنه التفت عني جهةَ شروق الشمس وصمت.. كان ينظر إلى ضوء الفجر الآتي من أفق الروح البعيد، ويشير بيده إلى منابعه الكبرى، فنظرتُ:

فإذا فتح الله كان هناك!.. كان يمشي بقدمين حافيتين على حقول الجمر، فينبثق البرق شديدا من بين جوانحه، حتى يضيء الآفاق، فيتألم

من أوجاع المحنة! وما أدرك سَارٍ نورَ بشارته إلا بنار تصفي خافقه من أتربة الأهواء، حتى لا يبقى من معدنه إلا الإبريز الخالص!

وعرفتُ طريقي، فاتبعت آثار الأغنام؛ فتلك مواقد النور اللاهب تشتعل عند مراعيها..

....

فتح الله الآن فتى يرعى غنمه في حِمَى قريته البرية، كان يتأبط كتابَه ويحتضن سِرَّهُ! لكن فتح الله ليس يبوح به! فلم يزل في ظلال طفولته يتدرج بمسلكه سِرًّا، وأنا أتبع ظله، فلعلي أعثر بين خطى سيرته على أبواب معارجه، ولعلي أرى صندوق مفاتحه المكنون!

قال لي:

هو إمامٌ تخرَّج من محاضنه متعلقا بمعارج الحب، عاشقا لحقائق الروح، مرتبطا بمسالكها العلوية؛ فكان بذلك محافظا على صلاته منذ صباه الأول، فلم يذكر أنه ترك صلاة واحدة قط، منذ أن شرع في التتلمذ على والدته، وهو ما يزال يتدرج بمدارج طفولته الأولى. وهنا بدأت أولى لسعات النار!

عندما افْتُتِحَتْ أولُ مدرسة ابتدائية في القرية انخرط فيها مستمعا فقط، وذلك لمدة ثلاث سنوات، حيث لم يُسمح له بالانتساب الرسمي إليها لصغر عمره آنذاك عن السن القانوني. ولكنه مع ذلك أثبت أنه كان أذكى من كل زملائه وأوعى! ولم يزل أثناء تمدرسه الأولي محافظا على صلاته، مرتبطا بمواقيتها بصورة عجيبة!

والصلاة محنة لصاحبها في تلك المرحلة العصيبة من تاريخ تركيا! فقد كان هناك جيش من المعلمين، تلقنوا الإلحاد في مدارس العلمانية

الحديثة، ثم نُشروا على طول البلاد وعرضها؛ لتربية الناشئة على نظريات الإلحاد وإنكار حقائق الدين! وصادف أن كان المعلم الذي يدرس الطفل فتح الله أحدهم، فجعل يمنعه من أداء صلاته، ويطارده من أجلها حتى في أوقات الاستراحة! ولكن بقدر ما كان المعلم يسخر بالدين وأهله، ويُشدد الحصار على براءة الطفل الوديع، كان فتح الله أشد ارتباطا بصلواته، وأكثر إصراراً على الحضور بمواعيدها؛ مما أفشل مشروع المعلم الملحد، وحطم ما وراءه من ترسانة بيداغوجية حديثة! فأثار ذلك كله حفيظته وأذكى غضبه، فجعل يسخر من الطفل وينعته بلقب "الْمُلاَّ!"(١) وكل ذلك إنما كان يزيد الفتى محبة في صلاته، وعشقا لمعراجه الروحي الأثير، رغم قساوة تلك المضايقات البليدة!

إلا المعلمة "بَلْمَا" فقد كانت أستاذة لطيفة حقا.. كانت امرأة مدنية جاءت من إسطنبول، وعندما رأت الطفل اكتشفت فيه مخايل العبقرية فاهتمت به اهتماما خاصا. وقد زادها خُلُقُهُ الرفيع وأدبُه الجم حبا له وتقديراً! فلم تزل تلاطفه وتواده إلى أن فارق المدرسة.. كانت تنظر إليه أحيانا، فتقول بأسلوب التنكير، مشيرةً إليه أمام التلاميذ جميعا: "سيأتي يوم يتجول فيه ضابطٌ سَامٍ على جسر كَلَطَه!".. وجِسْرُ "كَلَطَه" قنطرةٌ تاريخية مشهورة، تنتصب فوق مياه الخليج بإسطنبول، مدينة الجمال والأحلام! وكان المثقفون والأدباء والشعراء يومئذ، يتجمعون حوالي الجسر بالمقاهي المفتوحة هناك، ويجلسون على الكراسي المنصوبة بحواشيه.. وكثيراً ما كانوا يمشون فوقه متنزهين ذهابا وإيابا. فكانت المعلمة "بَلْمَا" تغمض عينيها ثم تتخيل هذا الفتى ذا العبقرية الخارقة، قد كبر وترقى بمراتب

(١) لقب علمي للمتخرجين من مدارس التعليم العتيق بتركيا.

الدراسة، كما يترقى الجندي البسيط بالمراتب العسكرية، حتى يحوز على الألقاب العليا؛ فيكون من كبار الضباط! وتشاهد الفتى بخيالها وهو يتدرج من قريته النائية الصغيرة، شيئا فشيئا إلى أن يصير من خاصة الخاصة بمدينة إسطنبول متنبئة للطفل بمستقبل زاهر، يكون فيه أحد أعلام الفكر والثقافة في البلد.. وقد كان!

ولا ينسى صاحبنا أبداً ذلك اليوم الذي أحدث فيه التلاميذ ضجة وفوضى في قاعة الدرس، فحشرتهم المعلمة للعقاب، ولم يدر الطفل كيف وجد نفسه وسط جماعتهم وهو ليس منهم؟! فجعلت تضربهم واحداً واحداً، حتى إذا جاء دوره للعقوبة ووقف أمامها، قالت له: "حتى أنت!" فمعكت شحمة أذنه ثم أرسلته ولم تضربه. لكن هاتين الكلمتين الصغيرتين، كانتا كافيتين لإيلامه وتعذيبه، بما هو أقسى على قلبه من كل الضرب الذي تلقَّاه التلاميذ، حتى ولو اجتمع كله على ظهره ويده!

وكم كان أسف المعلمة "بَلْمَا" كبيراً لما فقدت الطفل بعد ذلك في الصف! وإنما كان السبب رحيل أسرته الصغيرة من قرية "كُرُوجُكْ" إلى قرية "أَلْوَارْلي"، حيث صار أبو فتح الله إمام القرية الجديدة، فاضطر الطفل للانقطاع عن الدراسة في منتصف الصف الثالث! ذات مرة زار قريته الأولى حيث الجد والأعمام، فأبصرته المعلمة ونادته بإغراء وتَرَجٍّ:

- "محمد!.. لقد نقلتك إلى الصف الرابع، ما رأيك؟ ألا تستأنف الدراسة؟"

هكذا بلا امتحان، ولا حتى إتمام لما فاته من برامج الصف الثالث كان رجاؤها أن يتحقق حلمها فيما رأته من عبقرية هذا الطفل الصغير، ولكن دون جدوى.. فقد اختار الفتى طريقا آخر! فكان ذلك آخر عهده

بالمدارس الرسمية. ولم يتتبع مسلك الشهادات والبرامج المقررة، وإنما اكتفى بالشهادة الابتدائية، التي حصل عليه -فيما بعد- بالمشاركة الحرة في أرضروم.

* * *

ما بين مساعدة الوالدة في أشغال البيت، ومساعدة الوالد في رعي الماشية، كان الفتى يحتضن الكتاب بشوق غامر، فيختلي بمناجاته في البيت أو في جلوات المراعي، يلتهم بروحه المتبول الصفحات تلو الصفحات، ويدس في أعماق صدره الكتاب تلو الكتاب! والغريب أنه كان يتقن قراءة الخط العثماني والكتابة به، وهو الخط العربي الذي كان معتمد الكتابة والنشر، في عهد الدولة العثمانية. ومكمنُ الغرابة في ذلك أنه لا يذكر متى تعلمه ولا كيف!؟ فما ثبت أن تلقاه عن أحد داخل الأسرة ولا خارجها! فمذ عَقِلَ وجد نفسه قارئا له كاتبا! ولم تكن المدرسة الرسمية يومئذ تعلم سوى الخط اللاتيني، الذي فرضه الانقلاب العلماني، بعد تحريم تداول الحرف العربي، قبل ميلاد فتح الله بسنوات!

ومع هذا وذاك؛ جعل الفتى يجهد لإتمام ما بقي له من أجزاء القرآن، حفظاً واستظهاراً. وكان الوالد أحرص ما يكون على أن يرسخ كتاب الله في قلب ابنه رسوخاً؛ فجعل يقرئه بنفسه السورة تلو السورة، حتى جمع القرآن كله في صدره جمعاً. وقد احتضن الوالد -إلى جانب ابنه- ثلاثة طلاب آخرين، يقرئهم القرآن جميعا، فكان حفظ فتح الله عجيباً! لقد كان يسابق الزمن، إذ كان الفصل شتاء، وهو يخشى من حلول فصل الصيف، حيث تتكاثف الأشغال ما بين المزرعة والبيت، بما يملأ ليله ونهاره، فجعل يحفظ في كل يوم نصف جزء من القرآن. فما أن حل فصل الصيف

حتى كان قد تم له المراد، وحفظ فتح الله القرآن، كل القرآن. ولا أضاع -رغم ذلك- للبيت ولا للماشية حَقّاً!

نعم، لقد كان طفلا، لكنه كان يحمل في صدره قلب رجل. فعومل لذلك معاملة الرجال، ولَمَّا يجاوز حينها السن العاشرة من عمره.

مدارس التعليم العتيق ورحلة المعاناة والألم!

كانت مدارس بلاد الأناضول قد احترقت كل حدائقها؛ وباتت كل الكتب وقوداً للنيران، منذ أن ضرب الإعصار اللاهب دار الخلافة! ولم يَبْقَ لِمَحَاضِرِ العلماء بها إلا خيط دخان، لم يزل يرحل في الأفق الغارب على وهن، من هذا المسجد أو ذاك!

كان فتح الله يبصر طريقه إلى غده من على مئذنة المسجد.. كان يرى الخيول تنتظره هناك، في الجهة الأخرى لشاطئ زمن، لم يعلن الصبح عن مولده بَعْدُ، لكنه كان على يقين بمجيء موعده! وكان عليه أن يتلقى حكمة ألف كتاب وكتاب! عسى أن تُتَوِّجَهُ الخيل أميراً على زمن الفتح! فكان لا يرى بين حرائق مساجده دخاناً إلا اتبع بمسلكه سبباً!

قال الراوي: لم تكن آنذاك مدارسُ ولا معاهدُ -بالمعنى الحقيقي- للعلوم الدينية واللغوية، في منطقة أرضروم ونواحيها. فمن ناحية قضى الانقلاب العلماني على كل أشكال التعليم الديني في بلاد الأناضول كلها، ومن ناحية أخرى بدأ جيل العلماء ينقرض شيئا فشيئا.. ولم يكن قد أتيح للخلَف أن يكون في نفس المستوى إلا نادراً! فما كان من ملقني العلوم الشرعية آنئذ إلا بعض أئمة المساجد، المتناثرين هنا وهناك، بين

القرى والبوادي، لا يحمل أغلبهم من العلم إلا بضاعة مزجاة!

ذلك كله بالإضافة إلى عوامل أخرى، جعلت الفتى فتح الله لا يكاد يستقر عند شيخ من الشيوخ، إلا شهراً أو شهرين، ثم يحمل عصا ترحاله من جديد بحثا عن شيخ جديد! ولقد وجد في ذلك من مرارة البحث المستحيل، ومعاناة السفر من هنا إلى هناك، بلا مِزْوَدَةٍ ولا زاد؛ ما جعله يروي غليله بنفسه بمطالعة الكتب الدينية واللغوية بشتى أنواعها، دراسةً واستظهاراً حتى نبغ وفاق كثيراً من شيوخ زمانه ولم تزل زهرة عُوده يومَها تتبرعم ما بين الطفولة والشباب!

كانت الرحلة مريرة على كل المستويات، النفسية والاجتماعية. فبعد أن لقنه والده مبادئ اللغة العربية، واطمأن إلى إتقانه للقرآن، قرر أن يرسله إلى "الحاج صدقي أفندي" بقرية "حصن قلعة" من أقاليم أرضروم، على بعد نحو سبع كيلومترات من قريتهم أو تزيد. وطار الفتى مسروراً، متلفعا بجناح الريح؛ شوقا إلى مشيخة الإمام صدقي أفندي. هذا الإمام الذي كان مشهوراً بتلقين قواعد التجويد، وبعض العلوم الشرعية. لكن المأساة أن الطفل لم يجد مكانا للمبيت بمحضرة الشيخ! فاضطر للذهاب والإياب كل يوم ما بين قريتهم وقرية الشيخ، فيقطع ما بين الصباح والمساء، أكثر من أربعة عشر كيلومتراً، سيراً على الأقدام!

أما الشيخ "صدقي" فقد كان بزازاً، وكان لديه دكان لبيع القماش، وإنما كان يدرس الطلبة في أوقات فراغه لكنه ما كان يأخذ أجرة التدريس من أحد. فقد كان يفعل ذلك لوجه الله. وكان رحمه الله رجلا كريما، حيث كان يجهز طعام الغداء لطلابه في بيته كل يوم.

لكن والد فتح الله ما اطمأن -بعد ذلك- إلى وضع ابنه هذا إطلاقا،

فأمره بالانقطاع عن الذهاب إلى محضرة الشيخ صدقي أفندي؛ لأن ما يقضيه من الوقت في الطريق إليها صباح مساء، أكثر مما يقضيه متربعا بمجلسها، فكانت فرصة أخرى لمعانقة فتح الله للكتاب، والسياحة الحرة في أفق المعارف والعلوم.

إلا أن الإمام الألوارلي تدخَّل بعد فترة، فاقترح على الوالد أن يرسل الفتى ليدرس عند حفيده "سعدي أفندي"، إمام مسجد "قُورْشُونْلُوْ" الموجود بمدينة أرضروم، حيث اتخذ الإمام الشاب غرفة صغيرة جدا من بناء المسجد، جعلها مدرسة لتدريس علوم الشريعة. كانت المدرسة من الضيق بحيث لا تتسع لاستيعاب أكثر من بساطين صغيرين، وكان سقفها من خشب، لا يقي من مطر ولا يحمي من ثلج. ومع ذلك كان يبيت بها خمسة طلبة، ثم جاء فتح الله ليكون سادسهم.

انطلق الفتى مرة أخرى إلى المدرسة الجديدة، فإذا به بين يدي إمام شاب، لا يكاد يفوقه سنا إلا بخمسة أعوام أو تزيد قليلا. كان سعدي أفندي متمكنا من معارفه، إلا أنه كان عديم الخبرة في التلقين والتدريس. ورغم أن الفتى فتح الله كان قد درس المقررات الأولى؛ فقد أصر عليه الشيخ الشاب أن يبدأ من الأول. فكان أن استظهر بين يديه كل المقررات بعد شهرين ونصف، فاضطر الشيخ بعد ذلك إلى أن يجعله ضمن حلقة المتقدمين الذين بدؤوا دراسة النحو والصرف قبل سنتين.

بيد أن الطفل قضى أياما صعبة جدا بمدرسة سعدي أفندي هذا، أياما لا تكاد تنمحي من ذاكرته الجريحة، حيث كان يضع كل أشيائه في صندوق صغير يحمله بيده أبدًا. ولم يكن أبوه يستطيع أن يوفر له من النقود سوى ثمن الخبز، ثم ينفق الباقي من مدخوله الزهيد في إعالة أبنائه

الصغار. ذلك أن أسرة رامز أفندي والد فتح الله، تغير حالها المادي كثيرًا، وقُدِرَ عليها رزقُها، خاصة بعد مغادرتهم قرية "كُرُوجُكْ"، فعاشت فاقةً وحرمانا شديدين.

وإن كان الإنسان ينسى فإن فتح الله لا ينسى أبداً أيام القر الشديد والزمهرير المديد، وأرضروم كلها -مدائنها وقراها وجميع حِمَاهَا- هي موطن البرد ومسكن الثلج الأبدي، من كل بلاد الأناضول.. صيفُها شتاءٌ، وشتاؤها فَنَاءٌ.. غيابٌ شاملٌ للإنسان والحيوان والأشياء.. كل شيء تغطيه الثلوج، فلا تواصل بين أهاليها إلا عبر الخنادق والأنفاق التي يحفرها الناس من تحت تلال الثلوج؛ فَيَسْرَبُونَ بها لقضاء ضرورياتهم الاجتماعية، ثم يؤوب كل شخص إلى عشه، محتميا بموقد أسرته قبل أن يتجمد لحمه ودمه.

في تلك الأيام الرهيبة كان الفتى كلما اضطر إلى الاغتسال، يدخل مرحاض المدرسة، فيغسل جسمه بماء بارد عقيم لم تخالطه ولا غرفة واحدة من ماء سخين. كان ذلك في الحقيقة عملا رهيبا! فلم يزل فتح الله يذكر كيف أن قدميه كانتا تلتزقان -أثناء الاغتسال- بالجليد الذي تساقط ماؤه قبل ثوان مِنْ عَلَى جسمه، فتجمَّد للتو من تحت رجليه، ثم اعتقله إلى الأرض. فكان إذا أراد غسل قدميه اقتلعهما -الواحدة تلو الأخرى- من الجليد اقتلاعا! ثم هو مع هذا وذاك، لا ينسى أبدا تلك الرهبة الشديدة التي يحدثها صب الماء القارس على جسمه، إفراغاً من فوق رأسه إلى أخمص قدميه. ولولا أن الله متَّع الفتى -منذ صباه- بقوة جسمانية خاصة، لكان من الهالكين.

الفقدان الأليم..!

يُتْمٌ ولا كيتم الأبوين!

حزنٌ ولا كحزن الثقلين!

غيابٌ ولا كغياب القمرين!

قال لي: بينما كان الفتى بالمدرسة منهمكا في مطالعة كتاب في علم الصرف، كان الطلبة من حواليه يتهامسون بشيء..! ففهم من هيأة نجواهم أنهم يحاولون إخفاء خبر ما عنه.. لكنه ما لبث أن طار إلى سمعه من تخافتهم أن جده "شامل" وجدته "مؤنسة هانم" قد توفيا هذا اليوم -بقرية "كُرُوجُكْ"- في ساعة واحدة. فطار الفتى مِنْ عَلَى الأرض فَزِعاً، وازَّلزلت به الأرضُ زلزالا شديداً، وكأنما الدنيا كلها قد انهدمت فوق رأسه، فتَحَطَّمَ كُلُّ شيء من كيانه. ولكن المأساة كانت أعظم بالنسبة إليه لَمَّا وصل القرية، فعلم أنهما قد دفنا قبل وصوله، وانتهى كل شيء.

وبكى الطفل على جديه طويلا..! لم يستطع أن يصدق أن جده الأثير قد فارق الدنيا إلى الأبد فعلا، ولا أن جدته الصالحة قد غادرته من غير كلمة وداع! فقد كان حبه لهما غير عادي، وكانت علاقته بجده العظيم موصولة بلغة الروح والوجدان، فصعب على قلبه الغض هذا الفراق الأليم حتى إنه جعل يدعو صادقاً: "اللهم توفني حتى أرى جدي وجدتي!"

كان رباط المحبة بين أفراد الأسرة وثيقاً، وكانت علاقة فتح الله بِجَدَّيْهِ من نوع آخر، فلما قَضَيَا شَعَرَ بانقطاع موارد الاستمداد لطاقة الروح، وانبتات جذور الشعور بجمال الحياة. ومن غريب الموافقات أن الجدين قد توفيا معا في لحظة واحدة، وكأنهما اتفقا على موعد الرحيل! مات

الجد شامل أولا، ثم ماتت الجدة مؤنسة في الغرفة المجاورة بعد ساعة واحدة فقط! رحلا معا ثم وُورِيَا التراب، وفتح الله لم يزل في الطريق قادما من أرضروم، بقلب يمزقه الألم والأسى، حتى إذا وصل وجد البيت أفرغ من فؤاد أم موسى، فوقعت الصدمة على قلبه أضعافا مضاعفة. فلم يزل يبكي أياما حتى تواترت التنبيهات من حوله، بضرورة استئناف الذهاب إلى المدرسة.

عندما مات الجد "شامل" شعر فتح الله أن معراجه إلى الزمان القديم قد أُغلق إلى الأبد، ووجد أن عليه فتح معراج جديد على جدار قلبه الجريح، وأن ليس له إلا أن يطرق بمواجده الْحَرَّى باب الزمان الجديد.

عندما تسلق تلال قلبه الزمردية، فاجأه أَنْ وجد بين خمائلها وصية جده، مكتوبة على قوس قزح، كانت عبارة عن خريطة من نور تسلك به إلى مَكَانِزِ الروح، وتُوَرِّثُهُ أسرارَ الحكمة، وتكشف له عن موازين دورة التاريخ، فحمل الفتى أحزانه على كاهل الصبر، وسافر إلى مدرسته البعيدة من جديد.

حكاية الواعظ الصغير

قال الراوي:

كانت العادة في الأعياد والمناسبات الدينية، أن يعود الفتى إلى القرية، ويلتحق بأسرته التي كانت تجتمع في كُرُوجُكْ مع الجد والأعمام. وللعيد في البادية جمال احتفالي خاص، لا تعرفه الحواضر والمدن.

في مناسبة من أيام عيد الأضحى، طلب بعض الناس من فتح الله

أن يلقي عليهم وعظا بمسجد القرية، وربما كان ذلك بإيعاز من والده رامز أفندي، فلعله أحب أن يتدرب ابنه على هذه الصناعة منذ طفولته. وهرع الفتى إلى كِتَابٍ للوعظ، فراجع فيه مقاطع من السيرة النبوية لوقت وجيز، ثم دخل المسجد. كان كرسي الوعظ عاليا جدا، وكانت درجاته من الارتفاع بحيث لم يستطع الواعظ الصغير تسلقها، لكن فترة الحرج لم تطل، فما هي إلا ثوان حتى وجد نفسه محمولا بين يدي أحدٍ من أصدقاء والده، إذ رفعه عاليا حتى وضعه مستويا على الكرسي بصورة لا تخلو من مداعبة. فتبسم الحضور لطرافة المشهد.

كان الدرس الذي اختاره فتح الله متعلقا ببيان جانب من محنة الرسول ρ في سبيل دعوته، ومن ثم جعل يحدث الناس بقصة عدو الله "العاص بن وائل" الذي وصف النبي ﷺ بالأبتر، والذي نزل في حقه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾(الكَوْثَر:٣) لكن الفتى أخطأ في ضبط اسم الرجل؛ لأنه عندما كان يراجع القصة قبل لحظات اختلط عليه اسم راوي الحديث مع اسم عدو الله العاص بن وائل، فبدل هذا الاسم القبيح، لا يدري كيف رسخ في ذهنه اسم التابعي "أبي صالح"، بل لقد سقطت من ذهنه حتى كلمة "أبي"، فجعله بعد ذلك أثناء الوعظ "صالحا" فقط! فصب الفتى كل غضبه على "صالح"، وجعل ينعته بأسوأ النعوت والصفات. لكن المشكلة الكبرى ههنا أن رجلا من القرية كان اسمه "صالحا"، لكنه لم يكن يملك من أوصاف الصلاح شيئاً، بل كان خبيث الطبع، سيء المعاملة، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، ولا يأتي الصلاة إلا في الأعياد! فكان قَدَرُهُ هذه السنةَ أن وجد نفسه متربعاً بين يدي الواعظ الصغير، ليسمع من التجريح ما لم يسمعه قط في حياته!

وبدأ الفتى الهجومَ على "صالح" على ما توهمه من أنه عدو الرسول ﷺ، فجعل يصيح من كرسي الوعظ: "يا عديم التربية يا صالح"!.. يا كالح الوجه يا صالح"!.. "يا غليظ القلب يا صالح"!.. "يا خبيث اللسان يا "صالح"!.. "يا سيء الطوية يا صالح"!.. إلى آخر ما خطر بباله من ألفاظ النعوت القبيحة وعبارات الهجاء اللاذع، عَدَّهَا عليه الواحدة تلو الأخرى من كرسي الوعظ، أمام الناس.

كانت العبارات تنزل كالصواعق على رأس "صالح" الآخر، وهو جالس قريبا من كرسي الوعظ! فكلما أصابت دماغَه قذيفةٌ من قذائف الطفل البريء، احمرت عيناه وانتفخت أوداجه حتى قاربت الانفجار. وماذا عساه أن يفعل أو يقول؟ فإنما هو طفل صغير، وسيرة نبي كريم. فما أنهى فتح الله وعظه، حتى كان الغضب قد أوشك على خنق أنفاس الرجل الشقي.

ولم يغب ذلك عن كثير من الحضور، فكانوا يبتهجون لكل صاعقة تقرع رأس صاحبهم، ويتنفسون الصعداء لكل كلمة تصدر من فم الطفل في حق "صالح"! كانوا يجدون النعوت والصفات القبيحة التي يذكرها الواعظ الصغير، تنطبق جميعها على هذا الرجل الفظ الغليظ. ولكأن الله قيض له مِنَ الصِّغار مَنْ يؤدبه بما عجز عنه الكبار. ولقد حدث ما حدث والفتى مُتَّقِدُ الوجد، خالص القصد، هائم في درسه بكل براءة، ينافح عن حبيبه رسول الله -عليه الصلاة والسلام- وهو لا يدري ماذا يقع بين يديه من مَقَارِعَ ومَصَارِعِ.

وبعد انتهاء الصلاة عاد الواعظ الصغير إلى البيت، فما أن رآه والده حتى انفجر بضحك عميق، استبد به -على غير عادته- حتى كاد يتمرغ

على الأرض، وبقي الطفل مشدوها لا يدري سبب هذا المشهد العجيب من والده.. حتى إذا سكنت عاصفة الضحك، جعل الوالد يخبر ابنه بقصة وعظه الذي جلد به طاغية القرية بسبب خطأ غير مقصود.

وفاة الأب الروحي، ومأساة التهجير!

كانت العلاقة الأسرية بين آل الإمام الأَلْوَارْلي؛ وبين آل كولن متميزة جدا، إلا أن حفيده "سعدي أفندي" لم يستطع أن يحافظ على نفس صفائها، ففشل في معاملة تلميذه فتح الله بمدرسته الصغيرة في أرضروم، وتضايق الفتى أياما، ثم اضطر بعدها إلى ترك مدرسته ورجع إلى القرية ثم تفرغ للمطالعة الحرة مرة أخرى.

بينما كان فتح الله يستريح ممتدا على أريكة قديمة في صالة بيتهم الصغير بقرية أَلْوَارْلي، إذ سمع هاتفا يطرق أذنه بشدة: "إن أفَا قد مات!" فوثب من مكانه فزعا! "أَفَا؟" إنه لقب الإمام الأَلْوَارْلي: محمد لطفي أفا.. وانطلق يركض في اتجاه منزل شيخه الروحي المحبوب، فما أن وصل حتى أدرك أن الهاتف كان حقا. فهؤلاء الجيران يتجمعون حول البيت، ولما ينتشر الخبر بعد في أنحاء القرية. وأدرك الفتى أن القرية قد فرغت من روحها بفقدان مرشدها الحكيم! وانخرط فتح الله مرة أخرى في مسيرة جديدة من البكاء! فإذا بكى أمس -بموت جديه- لِنزيف الرَّحِم؛ فإنه يبكي اليوم -بموت شيخه الأكبر- لنزيف الروح!

وبموت الشيخ الإمام أدرك رامز أفندي والد فتح الله، أنه لم يعد له في قرية أَلْوَارْلي مكان. فالشيخ رحمه الله هو الذي نصبه إماماً لمسجد أَلْوَارْلي،

وكان له حصنا منيعا من حساده، ومنهم أبناء الشيخ نفسه وحفدته! فكان رامز بذلك في حمى مهيب، لا يستطيع أحد من أهل القرية أن يقترب منه، بَلْهَ أن يقتحمه أو يهدم أسواره! أما وقد مات الشيخ فقد تحطمت الأسوار، فما بقي لآل كولن إلا الرحيل مرة أخرى! ورغم أن عامة أهالي القرية على تقدير عظيم لإمامهم "رامز أفندي" واحترام كبير؛ إلا أنه -رغم ذلك- لَقِيَ معاملة قاسية، ومضايقات من أبناء الشيخ الأَلْوَارْلي وأنصارهم، وهو الغريب عن البلدة، لا حمى له بها ولا عشيرة! فبدأت طلقات الكلمات الجارحة تخرق أذنيه وتدمي قلبه! فمنصب الإمامة في القرية منصب محسود، وكل من له حظ من القرآن يرغب في أن يسطو عليه. أما الطفل فتح الله فقد تأذى من ذلك كثيرا! فما كان يطيق أن يرى أباه المحبوب في ذلك الموقف المهين، ومن ثَمَّ لم يكن للأسرة بد من الرحيل.. ولكن إلى أين؟

كان التفكير الطبيعي أَوَّلَ الأمر هو الرجوع إلى القرية الأصلية، حيث البيت القديم والأسرة الكبرى: كُرُوجُكْ. لكن هذا صعب جدا على الفتى، لأن رجوع الوالد إلى كُرُوجُكْ معناه رجوعه إلى الزراعة والماشية. وكان يحب أن يرى أباه إماما يؤم الناس ويعلم القرآن! ومن حسن الحظ أن الله يسر له وظيفة الإمامة بقرية أخرى غير بعيد، فرحل إلى "أَرْتُزُو" بضواحي أرضروم. وهنالك حطت الأسرة رحال المعاناة إلى حين.

تشرد في ليالي الإعصار

وماذا بقي من حدائق الروح سوى هشيمها؟ وماذا بقي من حرائق الغابات سوى رمادها؟ فلم يزل طلاب العلم البؤساء يبحثون بين أطلال

المدارس الإسلامية عن ورقة، أو بعض كراس، أو مخطوط لم تزل مخايل حروفه تتجلى باهتة من خلف سواد الحريق.. فلعلهم يجنون من بقايا النار بعض الآثار أو لعلهم يعثرون على بقايا عش لم تدركه ألسنة اللهب فَيُرَمِّمُونَ أضلاعه المهشَّمة عسى الطيور تعود..!

فواحسرتاه عليك يا زمن الربيع واحسرتاه!

بعد الانقلاب العلماني بتركيا، ملايين الكتب الإسلامية والمخطوطات العربية النادرة، أرسلت لتعجن في معامل الورق بالخارج! وكان مصير كثير من الكتب الأخرى المحارق والأفران! أما المصاحف فقد أعدمها أصحابها إعداما! وقليل منهم جعل لمصحفه صندوقا، ودفنه بمنزله على عمق في التراب، أو تخلص منه بعيدًا في كهوف الجبال! ويا ويل من عُثِرَ في بيته على كراس أو حتى على ورقة، فيها أثر لحرف عربي أو خط عثماني! فسلاسل الأحرف اللاتينية صارت تعتقل أصابع الأطفال والمدرسين في كل بلاد الأناضول!

أما المدارس الدينية التي كانت في العهد العثماني، فقد أغلقت بعد الانقلاب الجمهوري، أو حُولت إلى مدارس لتعليم الإلحاد وترسيخ العلمانية الجاحدة، ولم يبق لطلاب الشريعة سوى الفرار إلى البوادي النائية، والمدن المنعزلة، والاختفاء بغرف صغيرة اتخذوها مدارس لهم بعيدا عن أعين السلطات.. غرف لا تتجاوز سعتها بضعة أمتار، تكون في الغالب مقتطعة من مرافق المسجد؛ بها يتلقون الدروس، وبها يتناولون القوت، وبها ينامون.

ورغم هذا وذاك فقد بدأت أشواق الدراسة، والتلقي عن الشيوخ، تهيج بقلب فتح الله مرة أخرى، وتلهب آماله الكبرى من حين لآخر،

حتى إنها لتكاد تكشف عن أسراره!.. ولم يطق الفتى بعد ذلك صبرا على عصفها الشديد.. فما كان منه إلا أن استأذن والده، وحمل صندوقه الصغير الذي يضع فيه كل ما يملك من لباس وكتب، وشد الرحال إلى مدينة أرضروم مرة أخرى. وهناك التحق بمدرسة أخرى للتعليم العتيق، بالقرب من مسجد "كَمْخَانَ"، لكنه وجد المكان ضيقا جدا كالمدرسة الأولى تماما لا يؤوي أكثر من خمسة طلاب أو ستة على الأكثر! وصادف أن بعض القاطنين به كانوا من قرية أَلْوَارْلي، بل من أسرة لها صداقة خاصة مع أسرته؛ فكان سادس المجموعة مرة أخرى! واختنقت المدرسة بسكانها حتى أنه إذا ابتلي طالب منهم بضيف لا بد منه؛ كان معناه أن أحدهم سيبيت واقفا أو -في أحسن الأحوال- قاعدًا.

أما فتح الله فقد بات ليالي جالساً، يغفو أحياناً ثم يصحو..! ذلك أنه كثيراً ما كان لا يبقى له مكان لمد رجيله! وهو لا ينسى -في هذا السياق بالذات- ذكرى عجيبة ذات دلالات عميقة على طبيعة شخصيته، ورهافة حسه، وشاعرية وجدانه، إلى درجة تكاد جوانحه تشف عن دفقات الدم الجارية بشرايين قلبه! فذات ليلة لجأ الأصدقاء إلى مراقدهم، وتمدد كل منهم على راحته في فراشه، وأَوَى فتح الله إلى فراشه مثلهم، لكنْ ما هي إلا ثوان حتى انتبه إلى أن قدميه قد انتصبتا بمحاذاة رأس زميله، فكره هذا جدا؛ لما فيه من سوء الأدب.. فجعل يحول وجهتهما إلى الجانب الآخر، فإذا به يتذكر أنها وجهة القبلة، فكره هذا أيضا، ثم مدهما إلى جهة ثالثة، فإذا به يجدهما مطروحتين على الكتب، وإنما هي كتب في علوم الشريعة والدين؛ فكان حرجه أشد وأنكى! وفي الأخير مد رجليه تجاه قريته الأولى كُرُوجُكْ! فإذا بخافقه يهتز مرة أخرى ويقول له: لعل والدك

قد بات هذه الليلة في كُرُوجُكْ! وكان احترامه لوالده من القوة والعمق، بحيث لا يستطيع مد رجليه تجاهه ولو احتمالا! فما كان منه في النهاية إلا أن بات جالسا!

بعد ستة أشهر من هذه الوضعية الْحَرِجة، قرر أكبر الطلاب سنا مغادرة السكن، لكنه اتفق خفية مع مؤذن المسجد على أن يسلمه مفتاح الغرفة، حتى يتمكن هذا من ضمها إلى مرافق منزله، فإذا بفتح الله ومن بقي من أصحابه يجدون أنفسهم بلا مأوى.

ترك الفتى صندوقه الصغير بالمدرسة إلى حين، ثم قصد مسجد "تَاشْ" غير بعيد، فدخل مدرسته عساه يجد قبولا أو ترحيبا، ولكن بمجرد ما رآه الإمام -وهو صهر لابن الإمام الألوارلي- صاح في الطلاب: هذا ابن رامز أفندي! إياكم أن تسمحوا له بالمجيء إلى هنا مرة أخرى!

وخرج الطالب الصغير جريح القلب، كسير الوجدان!

وأَشْكَلَتْ قضية المأوى فعلاً! وفي بلدة محافظة مثل أرضروم، يعتبر كراء بيت لأعزب -ولو كان صغير السن- فضيحة كبرى وعاراً لا يطاق!

ولم يزل الفتى هائما على وجهه، يبحث ويسأل هنا وهناك عن بيت للكراء، حتى أخبره أحدهم بأن ثمة نَعَّالاً سيلتحق بالجندية الإجبارية، وعنده دكان يعرضه للكراء، فقصده الفتى، فلما اطلع على الدكان وجده صغيرا جدا، بحيث لا يتسع حتى لفراش واحد، بل لا يمكن لأحد أن يبيت فيه إلا جالسا. فقال الفتى في نفسه: وليكن! فإنما أنا الآن في حاجة إلى مأوى! فاتفق مع النعال على الكراء بخمس ليرات للشهر. ثم رجع إلى المدرسة الصغيرة فرحا، وأخذ صندوقه الصغير، وانطلق نحو دكان النعال لا يلوي على شيء، لكنه ما أن وقف بين يديه حتى قال الرجل

بكل برودة: لقد ألغيت فكرة الكراء، أنا لن أؤجر الدكان! وتجمد الدم في عروق الفتى، وظل واقفا وسط الشارع زمنا، ذاهل البصر عديم الحركة كالتمثال. كان يحمل صندوقه الصغير بيديه، والحزن يلطم خديه يمينا ويسارا.. وتيار الريح يجري بين رجليه.. لقد صار الآن بلا مأوى حقّاً.

ولا أشد من غربة طالب العلم، إذا طوحت به ريح التشرد في المتاهات... طفل من القرية يبحث عن مأوى ينقذه من مخالب البرد، ومناجل البؤس، ولا يد تمتد إليه ولو بمسح مواجع رأسه، وتسكين شعره المضطرب بريح الاغتراب... في زمنٍ غربتُه أشد على النفس من ظلمات الليل العقيم... ألا ما أشقى أن يجد الإنسان نفسه وحده، في رحلة المعاناة والألم... ضائعاً بين نكران قريب أثيم، وهجران بعيد لئيم.

سراج الروح ببلاد الأناضول، تحاصره الريح الضاربة ذهاباً وإياباً، ما بين فاس وإسطنبول! وأذان الديك يضيع ما بين ضجيج الإعصار، وعواءِ ذئابٍ هاجت غضباً من بكاء النور الغارب! ولا من يجعل لمصباح الأحزان زجاجَ أمان! ولا من يجعل لفراخ الطير الهارب أعشاش حنان!

وبقي فتح الله زمناً لا يدري مداه، هائماً على وجهه بين الدروب!.. كانت الأحزان تبني بمواجيده جسورَ السير إلى زمن الكشف، وتسلح روحه بأضلاع الصبار المر، وأشواك الورد البري!.. هنالك بباب الريح المفتوح على مدى مواجعه، ظل جسداً يقاتل بصلابته عصف اليأس القارس، ويخوض بغضبه الثائر ظلمات الغربة، يتحدى بإيمانه خطط الشَّرِّ وعاصفةَ القَرِّ!

كل ظروف القهر، وكل أنياب الفقر، وجميع سياط التشريد، تدفعه للعودة إلى قريته، لينكمش في عش أسرته مع الفقراء، ويموت بشرايين

قلبه أمل الفتح! لكن فتح الله صمد... وأنَّى لمن سكنته الأسرارُ أن يُدْبِرَ عن خط النار؟

ولم يزل فتح الله كذلك حتى مَنَّ الله بعودة الروح إلى القلب، فاتقدت عزيمته مرة أخرى، وانطلق يبحث بين المساجد والدروب عن مأوى..

بينما هو سارب أمام بعض المساجد القديمة، لفت انتباهه انعزال محرابه عن بنايته، وانفتاح ثغرة كبيرة منه إلى الخارج، فسأل عن سبب ذلك فقيل له: إن شخصا قد اقتطعه من المسجد في وقت سابق، وسكنه زمنا ثم راح وتركه هكذا خَرِباً! ودخل الفتى المسجد فوجده متداعي الأركان، واهن الجدران، إلى درجة أن من رفع صوته بداخله؛ تساقط عليه الحصى من قبته مع رجع الصدى.. كان ذلك المسجد هو مسجد "الأحمدية"، وهو مسجد أثري في غاية الأهمية، بني في العهد السلجوقي، وكان في الأصل مدرسة للحديث. ثم تنكرت له الأيام -ككثير من المساجد السلطانية- فصار إلى ما صار إليه.

بيد أن نظر فتح الله ظل معلقا بالمحراب المتهدم، وما هي إلا ثوان حتى استقر تفكيره على اتخاذه مسكنا. وانطلق إلى صديق له اسمه "ذو النور"، كان ما يزال في مرحلة حفظ القرآن، وكان مثله بلا مأوى! فعرض عليه فكرة المبيت في المحراب بعد التعاون على إصلاحه وترميمه، فقبل بلا تردد. ولم يُضِعِ الفتى وقتا، فجعل يبني حائطا بداخله تجاه المسجد -وصديقه يساعده- حتى رفعه إلى علو ستة أمتار! ثم شده بأسلاك حديدية إلى سقف المسجد، وجعل له بابا صغيرًا إلى الخارج.

كانت محاريب المساجد في العهود القديمة بتركيا عالية جدا، وربما كانت على مستوى علو سقف المسجد نفسه، كما كان بعضها من السعة

على قدر غرفة صغيرة، ومن ثم كان هذا المحراب الأثري كافيا لإيواء الطالبين براحة تامة.

ثم يسر الله لهما -بعد ذلك- العثور على مدفئة، أوقداها فبثت الدفء الجميل حولهما. وجعل الصديقان يأويان إلى بيتهما هذا، وهما يشعران كأن الدنيا كلها قد سيقت لهما بحذافيرها! أوليس لهما الآن بيت يأويان إليه؟ ومسكن يبيتان فيه؟ مسكن رفعا قواعده بسواعدهما، ولا أحد ينازعهما فيه! ورغم أن بعض الناس كان يحذرهما من خطر انهدام المكان أو المسجد برمته فما التفتا إلى شيء من ذلك قط، بل كانا ينامان كل ليلة بطمأنينة كاملة، وسكينة تامة. ولقد بقيا فيه حتى أتما ما قُدِّرَ لهما بأرضروم من دراسة، ثم تركا المكان لطلاب آخرين سكنوه بعدهما زمنا.

وقد بقي المسجد هكذا إلى أن تنفست البلاد بعض نسيم الحرية والانفتاح؛ فقام المسؤولون بإعادة الاعتبار للمساجد السلطانية والجوامع العتيقة؛ فتم ترميم مسجد الأحمدية وأعيد إلحاق محرابه بمصلاه.

"عثمان بَكْتَاش" شيخ الزمان العقيم

منذ أن ترك الفتى مدرسة سعدي أفندي حفيد الإمام الألوارلي، كان قد التحق بحلقة الأستاذ "عثمان بَكْتَاشْ".. الأستاذ عثمان كان متمكنا من علم النحو والصرف، والفقه وأصوله، وغيرها من علوم الشريعة لدرجة أن مفتي المدينة كان يستدعيه إلى مكتبه لاستشارته، كلما عرضت له نازلة.

ورغم انشغالاته المتعددة فقد اهتم الأستاذ عثمان بالفتى فتح الله اهتماما خاصا؛ لِمَا رأى من سبقه وتميزه، فجعل يدرسه مقررات المستوى العالي.

وبذلك تمكن الطالب حقيقة من علوم اللغة والبلاغة، والفقه وأصوله. فانفتحت عبقريته على أفق أعلى، وارتقى إدراكه العلمي إلى مستوى أدق حتى صار الأستاذ يكلفه بتدريس المستويات الأولى، وبمراجعة الدروس مع المبتدئين في هذا العلم أو ذاك. وذلك كله أفاده في ترسيخ معلوماته السابقة، وفي اكتساب خبرة أولية في التدريس والتعليم.

ولعل الأستاذ عثمان هو الشيخ الوحيد الذي يمكن أن نقول -إلى حد ما- إن الطالب فتح الله قد تَخَرَّجَ على يديه وبه، رغم قصر المدة التي لازمه فيها. فلو جمعنا كل ما درسه فتح الله على المشايخ بمدارس التعليم العتيق لما تعدى ذلك كله مدة سنتين؛ إلا أن الأشهر التي قضاها متتلمذا على شيخه عثمان بكتاش كانت كافية لانطلاقه في بحر العلوم فرداً! فبفهمه الدقيق لأسرار البلاغة وقواعد اللغة، وتلقيه لقواعد الفقه والأصول؛ انفتحت أمامه كنوز محفوظه القديم، من المقررات العلمية التي استظهرها من قبل، فصار يغرف العلم بعد ذلك من قلبه وعقله، مغذيا ومتغذيا. ومن ثم استفاد من تلك العلوم ما لم يستفده منها شيخه عثمان، ولِمَ لا؟ "فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ" ولذلك فقد اتضحت له السبيل بعدُ فانطلق.

في هذه الأثناء يسر الله لرامز أفندي والد فتح الله، الحصول على وظيفة الإمامة بأحد مساجد المدينة المركزية: أرضروم، فرحل إليها واستوطنها مع أسرته أبداً. وكان ذلك بداية عهد جديد في حياة الفتى، كفاه هم الطعام والشراب، والمساكن الضيقة والْخَرِبَةِ، ومخاطر التشرد العقيم؛ فتفرغ للتعمق في طلب العلم والمعرفة. لكن أغلب ذلك كان عن طريق المدارسة الفردية لكتب العلم، إذ تبين له عقم مناهج التدريس عند مشايخ التعليم العتيق. فهي لا تتجاوز تحفيظ الطلاب مجموعة من متون الفروع

وعلوم الآلة، مع إسراف في تحفيظ كثير من الأنابيش، وشواذ النحو والصرف والبلاغة، مما لا يفهمه الطلاب أبداً، بل مما لا يفهمه كثير من الشيوخ المدرسين لها أنفسهم. هذا إضافة إلى أنهم كانوا أعجز عن الارتقاء بالطالب إلى أفق التعامل مع نصوص الكتاب والسنة، ومحاولة تذوقهما؛ عسى أن تتفتق عبقرية هذا أو ذاك فيكون من المجتهدين. وإنما كان غالب علمهم وتعليمهم جامدا على محفوظات عقيمة، لا تفضي بالطالب إلى أي أفق. ولذلك فقد أعرض فتح الله عن هذه المسالك الميتة، التي تستهلك العمر بلا فائدة، وتفرّغ لتكوين نفسه بنفسه.

بعد رحلة جديدة في العلم والعمل تبين للطالب أن الأستاذ عثمان بكتاش نفسه كان محدود المعرفة جدا، ولم تكن له قدرة الاستنباط للأحكام، رغم معرفته النظرية بكثير من قضايا الفقه وأصوله، وإنما كان يفتي في النوازل من محفوظه فقط. وإن الفتى لا يزال يذكر عندما عاد مرة إلى أرضروم، من سفرٍ طال نحو أربع سنوات، قضاها ما بين وظيفة الإمامة في مدينة "أَدِرْنَه" بغرب تركيا، وما بين الانخراط في التجنيد الإجباري؛ أنه زار أستاذه عثمان بكتاش، فسأله الأستاذ عما كان يطالعه من الكتب؟ فأجاب بأنه كان يتدارس مع مجموعة من الطلاب كتاب صحيح البخاري بشرح الإمام القسطلاني، ففزع الأستاذ مما سمع، وبادر الطالبَ بسؤال إنكاري: "صحيح البخاري؟ ومن أنتم حتى تقرؤوا صحيح البخاري؟" وإنما كان استعظام الشيخ أن يقرأ هؤلاء الشبان صحيح البخاري راجعا إلى أنه هو نفسه لا يعرف صحيح البخاري إلا سمعاً. فلم يكن يقرؤه، ولا أحد من المتفقهين بالمنطقة يعرفه! وربما ما رأى نسخة منه قط في حياته، ولا عرف أضرابه من كتب الأمهات الحديثية وشروحها! وإنما كان علم الشيخ -وهو رأس المدينة ومفتيها-

محدودا فيما تعارف طلبة العلم على حفظه واستظهاره، مما بقي رائجا ببلاد الأناضول، بعد محاولة المحو الشرسة -التي باء بها طغاة العلمانية- للدين وعلومه، وإعدام كثير من العلماء الكبار، أو فرارهم إلى خارج البلاد.

مَسْلَكٌ غير مسلوك!

بلغ وعي فتح الله بأزمة زمانه ما جعله يؤمن بأنه مُرَشَّحٌ لِسَنِّ مسلك جديد، في طلب العلم والحكمة، وأن عليه أن يكسر أغلال الجمود والتقليد التي كبلت شيوخ عصره، وأن يخرج في سيره إلى الله عن خمول الزوايا والتكايا إلى نور الآفاق، ورحابة الروح.. كان لا بد من تفجير الماء من الصخر، ومن تحطيم حدود الوهم القاتل.

كان يرى أمته قد ضلت في صحراء التيه.. ويرى قبابَ إسطنبول، وكُلَّ مآذن الأناضول، وعتبات الباب العالي، وأسوار التاريخ الذي كان.. كلها قد هدمها جيش جالوت الجديد ثم حرَّقوا كلَّ خزانات الحب، وكل مخطوطات الأسرار، ونبذوها رماداً في مياه البوسفور... وبكت إسطنبول على حرائق أعشاش حمائمها وهناً.

فتح الله وحده كان يسمع عويل نوارسها، ويصغي إلى نشيج الليل، وشهيق الشطآن... فيبكي ويبكي... كان يرى خيول النصر هناك تقف صافنة على شاطئ الغيب، ولكنها أفراس بغير فرسان... فيبكي ويبكي...

ما بين خلوة وجلوة كان فتح الله يدرس خارطة فتح القسطنطينية سِرّاً.. كان يقرأ في كتب الصرف كيف يصرف أجيال الترك على موازين القرآن؛ وينظر في كتب النحو إلى كيفية جبر الكسر، ورفع الهامات في كل مكان،

وعلاج الفعل اللازم؛ فلعله يتعدى إلى نصب جسور الفتح على مياه البوسفور؛ ولعل الفاعل يتحرر من أغلال الفعل الجامد، ولعله في يوم ما يعرف مفعوله؛ فتلتقي الأفراس مع فوارسها، وتتخلص الأمة من بناء الفعل للمجهول.

واشتغل في دراسة علوم الحديث ورجاله، بتضميد آثار التجريح النازف في جسد الأمة، وعلاجِ عللِ أسانيدَ عجزت عن إدراك مشكاة النبوة؛ فعساها إن صَحَّتْ تبعث في الأمة كمال الصحة، وتكشف عنا غمة هذي الظلمات. ثم يبيت الليلَ يُعَدِّلُ رجالاً ورجالاً، على شرط الإمام البخاري، ويختار من بين رواياته أقرب الطرق إلى كلمات النبوة؛ إذ لا فتح لبحر الظلمات بغير جيوش السند العالي.

كان يستخرج من قراطيس الفقه أحكامَ جراحاتِ الطير، وحُكْمَ رضاعِ القَطْرِ، وجبر السهو الحاصل في سجود القلب لغير القبلة.. وحُدوداً أخرى لم يبصرها علماء الأرز ولا فقهاء الخبز.

ويقرأ في كتب السيرة منازل السير إلى النصر المشهود، ويقيس مسافة ما بين النصرين: من فتح مكة إلى فتح القسطنطينية؛ عساه يقيس ما بقي من السير إلى النصر الثالث في فتح رومية!

وفي كتب المنطق كان يتعلم أسراراً من منطق الطير، ولغات الريح، وخُطَبَ الرعد القاصف، وسِرَّ نشيج المطر المكتوم! ويحفظ أذكار الجبل الخاشع، وتراتيل الليل الساجي، فيبكي ويبكي!

ويتلقى في مسلك الروح، بسند الإلهام الصافي: حدثني قلبي عن ربي، أن لا إشراق لصبحٍ إلا بصفاء دموع الليل، فيبكي ويبكي!

....

ومن ثم فرغم تفرغ فتح الله لطلب علوم الشريعة، متنقلاً بين المدارس العتيقة ومشايخها، فإنه ما أهمل الارتواء من مجالس الذكر، ولا الاغتراف من حياض الروح. كان شيخه الأول في هذا المسلك هو الإمام الألوارلي رحمه الله، الذي كان يحبه كثيراً. فقد كانت مجالس الشيخ، هنالك بقرية أَلْوَارْلي هي المحضن الرئيس، الذي تفتقت فيه مواهب الفتى الروحية، ونضجت فيه مواجيده الإيمانية. ومن ثَمَّ فقد كان كلما زار قريةَ ألوارلي، لم يرجع إلى مدرسته حتى يتزود من مجالس الإمام ما يملأ قلبه شوقا إلى طلب المنازل العليا بمعارج الروح. وبعد وفاة الشيخ -رحمه الله- واظب الفتى على التردد إلى مجالس شيخ آخر في أرضروم، اسمه رَاسِم بَابَا. وما أن انتبه الشيخ إلى الفتى حتى أُعجب به، وانبهر بسمته وخلقه، وتميُّزِ نباهته وسَعَةِ أفقه، فقربه إليه جدا، إلى درجة أنه صار يجلسه على يمينه رغم حداثة سنه. ولكن ما مضت أيام حتى بدأ القيل والقال يسري بين رواد المجلس، وألقى بعضهم شائعة بينهم أن الشيخ يعزم على تزويج ابنته من فتح الله. وما أن بلغت الشائعة سمع الفتى حتى بردت عواطفه تجاه المجلس فانقطع عن التردد إليه.

بعد بلوغه منازل العلماء الراسخين، تيقن فتح الله أن هذا التوازن التلقائي الذي كان يجده ما بين متابعة الدراسات الشرعية، وبين المواظبة على حضور مجالس الذكر، هو الذي مكنه من اكتساب نظرة شمولية متوازنة، لمفهوم الدين حقيقةً وشريعةً. ولذلك لم يكن الفتى من الدراويش الذين يتوسلون إلى مرادهم بخشن الثياب والمرقعات، بل كان يعتني بلباسه اعتناءً، ويحرص على نظافة هندامه وأناقته، ويداوم على كي معطفه وسرواله، ولا ينسى أبدا مسح حذائه، حتى إنه إذا لم يجد مكواة

مد سرواله ما بين خشبة سريره وفراشه، ثم نام فوقه ليلة كاملة. فإذا كان الصباح استخرجه مستقيم الثنايا بلا تجاعيد. فلا يخرج من غرفته حتى يكون آية في الأناقة والجمال. خاصة وأن الله قد أعطاه من حُسْنِ الخلقة حظا ليس بالقليل، زاده بريق عينيه المشع بوهج الروح هيبةً وجلالا.

ولذلك ما تَفَهَّمَ أحد من أصحابه -في مرحلة الطلب- العلاقة بين الحالين في شخصيته، ولا وجدوا انساجاما بين الطورين في طبيعته؛ حيث كانت الثقافة الصوفية الرائجة يومئذ -بين رواد الزوايا والتكايا- تفسر الزهد بأنه الابتذال في اللباس، ومعاداة الأناقة والجمال، حتى إن بعضهم انتهره يوما من أجل كيّ سرواله، قائلا: "ألا تستح يا هذا؟! كن تقيا ولو شيئا قليلا!" وقد حزت في نفسه هذه العبارة زمنا؛ فكما أنهم لم يفهموا سلوكه ذاك، فإنه هو أيضا لم يفهم العلاقة بين سروال مكوي ومصادرة مقام التقوى.

كان بعض أصدقائه يتعجبون من اختلاف أطواره وأحواله، ما بين إقباله الروحاني العالي، وحرصه الشديد على الذكر ومجالسه، وانجرافه السريع عند المواعظ مع غدران البكاء إلى درجة الشهيق؛ وما بين انفتاحه الفسيح نحو الذوق الجمالي في مظهره وملبسه، بل كانوا لا يستسيغون حتى انجذاباته الشاعرية نحو السياحة، وعشقه لمشاهدة جمال الحياة من الأعالي.

فتح الله كان فتى جوالا، ذا طاقة اكتشافية غير عادية، لم يكن يتخلى عن تمريناته الرياضية أبداً. فقد وهبه الله فُتُوَّةً في الروح، وبسطةً في العلم والجسم، فصار -وهو في بدء تفتح زهرة شبابه- فتى يفيض حيويةً ونشاطاً. وهو ليس يدري لماذا حُبِّبَتْ إليه الأعالي والخلوات، وضروب المغامرات. فقد كان يجد نفسه راكضاً بجموح شديد نحو المجهول..!

لقد عاش مراهقة من نوع آخر، مراهقة جعلته يعشق مشاهد البطولة، ومظاهر الفروسية. فكان لذلك يحب التحدي، ويحطم جدران الخوف في كل شيء، ومن أي شيء..!

كان يعشق أن يسير ليلا بجانب الأنهار الرهيبة، والوديان الجارفة، كان يضع قدمه بقصد على حافة النهر، وهو يجرف ما حوله من تراب وشجر. وكان يتسلق الأشجار العالية، والمآذن الشاهقة... كانت شجرةُ صفصاف عظيمة تنتصب بالقرب من أحد المساجد بأرضروم، لم يكن أحد يجرؤ على تسلقها لانتشار أغصانها في أعالي الفضاء بصورة مخيفة.. فكان فتح الله يقتحم أغصاناها الضاربة في السماء بسرعة فائقة، فما يكاد يضع قدمه على أسفل جذعها حتى يراه الناس قد استوى على ذؤاباتها العالية؛ بينما لم يكن يَقْوَى حتى على تسلق أقرب أغصانها إلا القليل من أقرانه!.. ومن هناك، على رؤوس الأغصان العالية، كان يسرح ببصره في أفق المدينة وضواحيها، ويروي عطشَ حبِّه للطبيعة بمشاهدة روابيها... فكم كان مغرما بالإشراف على العوالي من الأعالي. وربما صعد مئذنة المسجد الرشيقة، فمشى على حافة شرفاتها من الخارج حتى إن الذين كانوا يرونه من الأرض، تأخذهم الرهبة؛ فتضيق صدورهم من متابعة حركة التفافه حول المئذنة، بهذه الصورة الخطرة!.. أما هو فقد كان ينشغل بمطالعة الأفق البعيد، ومشاهدة المناظر الجميلة، على أوسع ما تكون المشاهدة.. كان ينظر هناك هناك.. فلعل ومضة من نور تلمع في الأفق، فتشير إليه بما هو يترقب، ولعلها تدله على معالم الطريق!.. كان فتح الله -كلما تسلق شاهقاً- أشبهَ ما يكون بالحمام الزاجل، يرتفع محلقاً في الأفق عاليا، حتى إذا حدد الاتجاهَ استوى على مقام السفر، وضرب بجناحه في الطريق المناسب!

لقد كان فتى جسوراً حقا، تفزع الشجاعة من جسارته وتَفْرَقُ البسالة من جرأته... يصارع الشباب في الرياضة، فلا يناوره أحدٌ من أنداده إلا طرحه أرضاً ولا يواجهه بطلٌ إلا صرعه في أقل من لمح البصر حتى إن المطروح لا يكاد يدري كيف ولا ماذا حصل. كان فتح الله هو الطليعة في كل شيء، ومع ذلك كله كان شابا أنيقا جميل القوام، يلفت الأنظار بنظافته، وحسن خُلُقِهِ. وهو في كل ذلك لم يزل يحتفظ بسره، ويخفي حقيبة مكنونه، ثم يمضي متخفيا بين أقرانه، سَارِباً تحت ظلال جيله حتى يَحُلَّ الإبَّانُ ويأذن الزمان.